حرية
عدالة
مواطنة

البديل

اسبوعية-سياسية-مستقلة

رئيس التحرير : حسام ميرو

العدد (١٤٩) ٢٠١٤/٠٧/٢٠ م | www.al-badeel.org | Issue (149) 20/07/2014

خطاب القسم: التكيف مع الأزمة داخلياً وخارجياً

حسام ميرو

وجه بشار الأسد جملة رسائل في خطاب القسم لولاية ثالثة، مؤكداً، ضمنياً، على أن مرحلة الوهم في إسقاط النظام قد أصبحت من الماضي، وأن سوريا اليوم أمامها مهام كثيرة، في مقدمتها محاربة الإرهاب، وهو ما كان نبّه منه بحسب خطاب القسم في بداية الأزمة السورية.

ما زال الأسد مصراً على تسويق نظامه في الحرب على الإرهاب، خاصة بعد أن بات تنظيم «داعش» الذي تمكن من احتلال الموصل ونينوى ومدن الأنبار الأخرى هو أحد أهم أبرز الأحداث تداولاً في المشهد الإعلامي، وفي نقاش صناع القرار الغربيين حول المسألة السورية، ومفاعيل هذا التحول مستقبلاً على المصالح الأمريكية والأوروبية.

لا يأتي إصرار الأسد هذا من فراغ، وإنما مستنداً إلى جملة من الوقائع التي تكرّست في الشرق الأوسط، وأهمها أن ما يعرف بتنظيم القاعدة في جيله الرابع قد أصبح جزءاً لا يتجزأ من المشهد العام الممتد من أفغانستان وباكستان واليمن والعراق وسوريا واليمن وتونس.

حمّل الأسد الولايات المتحدة الأمريكية المسؤولية عما آلت إليه الأوضاع في المنطقة قائلاً: «هل كان علينا الانتظار اثني عشر عاما حتى نفهم أن غزو العراق سيجلب الإرهاب والتقسيم إلى منطقتنا»، لكنه لم يتطرق أبداً إلى مسؤولية الدولة الوطنية في معالجة مشكلاتها الداخلية، فما حدث ويحدث بنظره هو نتاج مؤامرة خارجية، وليس بسبب تراكم الأزمات الداخلية، وهو ما قاده إلى وصف كل «الربيع العربي» بأنه «داء»، وبأن التظاهرات التي خرجت في سوريا لم تكن من أجل الحرية والديمقراطية، وإنما ما جرى هو «ليس مطالب محقة لشعب مضطهد.. ولا تظاهرات حملت مطالب بالحرية والديمقراطية بل هو مخطط كبير للمنطقة برمتها»، وأن هذا المخطط امتداد للمخطط الأمريكي للمنطقة الذي بدأ مع غزو الولايات المتحدة للعراق.

لم ينسَ الأسد في خطابه أن ينال من سياسة تركيا ورئيس وزرائها، واصفاً سياسة أردوغان ب»العنتريات»، بمعنى أنها كانت فارغة من أي مفعول حقيقي، كما لم ينسَ اتهام دول الخليج بأنها أسهمت بالمؤامرة على سوريا، وبأنها قد فشلت في مسعاها، كما لم ينسَ شكر روسيا والصين وإيران لأنهم « احترموا قرار الشعب السوري وسيادته»، وحدد مهام الفترة المقبلة، وفي مقدمتها متابعة محاربة الإرهاب، وإعادة الإعمار، ومحاربة الفساد.

الرسائل التي حملها خطاب الأسد لا تحمل أي جديد، لا على مستوى الشكل ولا على مستوى المضمون، وبقيت عند الحدود التقليدية لرؤية للنظام على المستويين النظري والعملي، فالمعارضة السياسية هي معارضة عميلة، وتنفذ أجندات خارجية، وتالياً فإنه لا حوار مع معارضة من هذه الطينة.

خطاب القسم كان مناسبة للأسد كي يعلن انتصاره، وهو انتصار لم يكن ليتحقق «لولا دماء الشهداء والجرحى وعائلاتهم الصابرة الصامدة العاضة على الجرح».

لكن، ما يجب السؤال عنه هو هل اطمئن الأسد إلى بقائه في السلطة لولاية ثالثة؟ خاصة أن وضع المعارضة السورية اليوم هو أضعف بكثير مما كانت عليه في مراحل سابقة، والواجهة السياسية «الائتلاف» تعاني من مشكلاتها الداخلية، ومن أزمة غياب الثقة الأمريكية بقدرتها على إسقاط الأسد، وهو ما عبر عنه منذ أسابيع الرئيس الأمريكي في قوله الذي لا يخلو من سخرية : « لا يمكن لمزارعين وأطباء أسنان لم يسبق لهم أن حاربوا، أن يتغلبوا على نظام الأسد والمجموعات الجهادية».

يعلم الأسد تماماً بأن المنطقة تتغير، وأن الدولة السورية لن تعود كما كانت عليه، وأن مستوى الدمار أكبر من قدرات نظامه على ترميمه، ليس فقط على مستوى البنى التحتية، وإنما على مستوى النسيج الوطني السوري، وعلى مستوى الانقسام الذي يعيشه السوريون، وعلى مستوى الاقتصاد الوطني، والتنمية، لكنه في الوقت نفسه يعلم تماماً بأنه لا توجد روافع حقيقية لدى المعارضة تمكنها من إسقاطه، كما لا يوجد إرادة دولية من أجل إيجاد مخرج للأزمة السورية، وأن الصراع في المنطقة يذهب أكثر فأكثر نحو صراع مذهبي طويل، وبناءً على ذلك، فإن الأولوية الرئيسية هي للتكيف مع مسارات الأزمة داخلياً وإقليمياً، والبقاء في السلطة من خلال المعادلات القائمة، بغض النظر عما آلت إليه سوريا، أو ما ستؤول إليه.

خطاب القسم في مرآة سكان من العاصمة: الأسد لا يمكن تصديقه

■ دمشق- خاص «البديل»:

في الوقت الذي كان فيه بشار الأسد يلقي خطاب القسم لولاية ثالثة كان المهندس أحمد فرحان× يجهز نفسه للرحيل نهائياً هو وعائلته عن سوريا، حيث وجهته ألمانيا من أجل تقديم اللجوء. لم يكن مكترثاً بخطاب القسم، أو بما يمكن أن يتضمنه، وقال: "أعرف أنه لن يحمل أي جديد".

يوم الثلاثاء الماضي، ألقى بشار الأسد خطاب القسم، وحاولت "البديل" التقاط بعض ردود الفعل من سكان العاصمة دمشق، خاصة في الأماكن التي ما زالت توصف بالآمنة، وما زال فيها بعض من حياة مقارنة بأماكن أخرى في ريف دمشق، وهي قرى وبلدات لا يعرف الكثير من سكان العاصمة ما يجري فيها تماماً.

كان المهندس أحمد على موعد بعد ساعات مع سائق التاكسي الذي سيقلهم إلى بيروت، حيث سيغادر منها إلى ألمانيا، بعد أن تمكن من تأمين الفيزا له ولعائلته، ويبدأ حياة جديدة : "أنا تجاوزت الخمسين، لا أتوقع التكيف سريعاً مع حياة اللجوء، لكني أطمح أن يكون لولدي حياة جديدة"، وتابع:" أي خطاب قسم، أنا أتذكر خطاب القسم الأول الذي ألقاه بشار الأسد بعد أن ورث الرئاسة عن أبيه، وقتها شعرت بشيء من التفاؤل، لكن اليوم أعرف أن كل ما سيقوله ليس له علاقة لا بالحاضر ولا بالمستقبل، كان بالإمكان أن لا نصل إلى هنا، وأن نجنب سوريا الدمار والموت، لكنه فضل محاربة الشعب".

وفي المدينة القديمة، تعيش فريال أسعد×، وهي مطلقة، وليس لديها أولاد، وتسكن في بيت أخيها، وتعمل في إحدى الدوائر الحكومية. قالت فريال: "لم يعد الكلام مهماً، المهم أين وصلنا، لقد باتت الحياة لا تطاق، ولا أعتقد أن أية وعود يمكن أن تبعث على الأمل، لم نعد نصدق الخطابات".

فريال في العقد الرابع من العمر، ولها صديقات ممن اعتقل أبنائهن، أو ممن اضطرتهم الظروف لمغادرة سوريا، وهي تشارك أخيها المتزوج السكن، وتساعده في مصروف العائلة. قالت فريال: "كان المطلوب من الحكومة في بداية الاحتجاجات أن تتعامل بجدية مع مطالب الناس، لكن من يمسكون بزمام الأمور لا يريدون التخلي عن مناصبهم وامتيازاتهم، ولا يثقون بالشعب، ولديهم جواب واحد عما حصل في سوريا، وهو المؤامرة".

كان لقاء "البديل" مع فريال في مساء الثلاثاء، بعد ساعات من خطاب القسم، وسألناها عن نية الأسد في مواصلة الحرب على الإرهاب، وإعادة الإعمار، وغيرها من الشعارات التي تضمنها الخطاب، فقالت:" من اعتقل آلاف الشباب، ومن هجّر ملايين السوريين، ومن زج الجيش لقمع المظاهرات، من قام بكل ذلك هو الإرهابي"، وأضافت :"نعم أنا أخشى من الإرهاب، ولم أكن أتمنى أن أرى المنظمات الإرهابية وهي تحاول فرض نفسها على الناس، وتكفيرهم، لكن هذه نتائج، وليست الأسباب".

وتابعت: "دعونا نتذكر كيف خرج السوريون يطالبون بالحرية، ويؤكدون على وحدتهم، ولكن ماذا حدث، من قام بفض الاعتصامات بالرصاص، ومن أهان أهالي درعا، ومن ثم أهان البلد كله كي لا يقدم أي تنازل".

أما نواف عامر×، وهو طالب جامعي في سنته الأخيرة، فقال :"واضح أنه لا يريد الحل"، كان نواف يتحدث عن الأسد، وتابع:" يعني ماذا أضاف خطاب القسم، ومتى التزم بشار الأسد بكلامه. تحدث عن الحوار الوطني واستخدم الصواريخ والبراميل والكيماوي ضد الشعب، نحن بالنسبة إليه كما قال في الخطاب تنقصنا الأخلاق، يعني "ما تربينا مليح"، وكل ما فعله من أجل تربيتنا، لكن الحق ليس عليه وحده، فما يسمى المجتمع الدولي هو مجتمع مصالح للدول القوية، ونحن شعوب متخلفة، تركوا السلطة تقتل الشعب، وإذا مات مليون أو مليونين، فنحن بالنسبة لهم مجرد أرقام".

وأضاف نواف: قرأنا عن المجتمع الدولي المتحضر، وعن حقوق الإنسان، ولم نتخيل أن هذا المجتمع الدولي المتحضر أن يكون عاجزاً عن منع ما جرى للسوريين، وهم بمواقفهم سمحوا للأسد بولاية ثالثة، يعني بإنهاء سوريا.

شيماء محمد×، طبيبة عامة، وتفكر بإكمال دراستها خارج سوريا، قالت: "لم أتابع خطاب القسم، لا أريد أن أوتر أعصابي، أعرف مسبقاً أنه سيعيد الكلام نفسه عن المؤامرة الكونية، وصمود الجيش العربي السوري، وعن المقاومة والممانعة، وكلام كثير ليس له معنى".

وأضافت شيماء: "لقد رأيت الصور المسربة عن الآلاف الذين قتلوا تحت التعذيب، ورأيت صور أطفال الغوطة الذين قضوا بالكيماوي، ولدي أصدقاء كثر ممن كانوا معي في الدراسة غادروا سوريا إلى غير رجعة، والناس تركت بيوتها، وحتى بعض الذين ادخروا القليل من المال أنفقوه خلال الأعوام الثلاثة الماضية، واليوم لا حول لهم ولا قوة. سوريا تدمرت، وأصبح الناس يتحدثون عن التقسيم، والبعض عن دولة إسلامية، والكل لا يعرف ماذا ينتظره في الغد، وسيادته مشغول بخطاب القسم، ومستعد أن يحكم حتى لو لم يبقَ هناك غيره".

وختمت شيماء: لم أكن أصدق أن حب السلطة يمكن أن يكون مدمراً إلى هذه الدرجة، لكن الأسد أثبت أن حب السلطة يمكن أن يدمر بلاداً بأكملها، وأن يشرد شعباً بأكمله، وأن يحوّل أحلامنا إلى رماد".

الأسماء الواردة في التحقيق ليست حقيقية، وقد اختارها أصحابها لأنفسهم.

اقتصاد دويلة «داعش» واقتراح أوبنهايمر لاقتصاد المستوطنات الصهيونية

■ حكم عاقل

في إحدى أهم فترات الازدهار الحضاري للدولة العباسية تدفق على بغداد في عام واحد 400 مليون درهم، وهو ما يعادل 1160 طنا من الفضة. وللمقارنة بلغت كامل إيرادات الامبراطورية الروسية عام 1763 ما يعادل 140 مليون درهم تقريبا. ويبدو أن البلاط الفرنسي بدءاً من لودفيغ الرابع عشر كان وحده قادراً على منافسة الغنى الفاحش للبلاط العباسي.

لعبت الفتوحات الإسلامية التي كرست نظاما مالياً يقوم على الخراج والجزية وغيرها من أنواع الضرائب الاخرى القادمة من الريف الزراعي دوراً هاماً في تكدس الثروات في «المدينة العربية»، لاسيما تلك الموصوفة بالمدن – المعسكرات التي تم بناؤها كمراكز عسكرية أساسا لإقامة العسكر الفاتحين، مثل بغداد والكوفة والبصرة في العراق، والفسطاط بمصر، وتلك المدن المركزية التي استوطنها عرب شبه الجزيرة، مثل دمشق ومدن الساحل الفلسطيني. في هذه المدن انتعش الاقتصاد القائم على الملكية الخاصة وعمليات البيع والشراء، ليلعب أبناء الطبقات الميسورة الدور الرئيس في إنتاج الثقافة العربية الكتابية ابتداءً من عصر التدوين الإسلامي في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، تلك الثقافة التي انهارت مع انهيار «المدينة العربية» المتشكلة اقتصادا ومجتمعا عبر آلية "الفتح"، بدءاً من سقوط بغداد 1258م على يد المغول وتدمير معظم مدن العراق ومناطق واسعة من سوريا، وصولا إلى الغرب وسقوط غرناطة آخر معقل إسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية في العام 1492م.

الدولة الإسلامية التي أعلنتها "داعش" والتي تحاول ظاهريا استلهام النموذج التاريخي لدولة الخلافة الاسلامية بعيدة كل البعد عن ذاك النموذج، على الأقل، في إلحاحها على عودة التاريخ الى الوراء، وهو ما يرفضه منطق التاريخ نفسه.

حاولت "داعش" تطبيق بعض مفردات القاموس الاقتصادي الإسلامي التقليدي مثل الجزية والخراج والزكاة في المناطق التي أخضعتها في محاولة لتكريس مشروعية فقهية لنظامها السياسي، إلا أن الاقتصاد الداعشي مختلف تماماً عن اقتصاد دولة الخلافة الإسلامية، والذي ينسب إلى عمر بن الخطاب الذي وضع لبناته الأولى لينطلق بعدها المنظرون الفقهيون في استنباط قواعده، ووضع أصوله بأثر رجعي، مع التطورات اللاحقة التي شهدتها دولة الخلافة مروراً بالعصرين الأموي والعباسي.

الاقتصاد الداعشي أبعد حتى عن أن يكون اقتصاد دولة، لا إسلامية ولا غيرها، بل هو نظام عصابة بامتياز. الخطف والتهديد والابتزاز والسطو والسرقة والمصادرة وغيرها تشكل أسس الاقتصاد الداعشي.

بعد الحصار الذي مارسته أجهزة الاستخبارات العربية والغربية للحد من تمويل «القاعدة» والحركات المتفرعة عنها لاسيما «داعش» والمتأتي عن طريق الافراد والمؤسسات، كان على "داعش" أن تبحث عن تمويل ذاتي، وهو ما نجحت فيه إلى حد كبير. ويبدو أن تنظيم الدولة الإسلامية يطبق نظرية فرانز أوبنهايمر صاحب فكرة المستوطنات في فلسطين أكثر بكثير من تطبيقه لأي نظرية اقتصادية أو سياسية إسلامية، وقد رأى الأخير أن بناء دولة داخل دولة قائمة بالفعل يتطلب البحث عن تمويل ذاتي عبر نهب القرى والمدن وفرض الضرائب وتحويلها إلى تجمع ميليشوي للحماية. والمعروف أن أوبنهايمر هو صاحب النظرية الاقتصادية المعروفة بـ «الاشتراكية الليبرالية» والذي قدم للمؤتمر الصهيوني السادس في 1903 م برنامجاً اقتصاديا للحركة الصهيونية بناءً على طلب من ثيودور هيرتزل، وقد أقره المؤتمر وقام مكتب فلسطين التابع للجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية بإنشاء مستوطنة تعاونية في يافا استناداً إلى أفكاره في العام 1911م.

وفق تقرير لصحيفة "الجارديان" تمكن مقاتلو "داعش" من الاستيلاء على آثار لا تقدر بثمن عبر الحفريات التي قاموا بها في سوريا لاسيما في منطقة في جبال القلمون غرب دمشق،، ورأى مسؤولو المخابرات الأمريكية أن بعض هذه الآثار يعود تاريخها إلى ثمانية آلاف سنة، بثمن في السوق السوداء ربما يصل إلى 36 مليون دولار.

الدولة الإسلامية التي أعلنتها "داعش" تحاول ظاهريا استلهام النموذج التاريخي لدولة الخلافة الاسلامية

أما النفط فيعتبر من أهم مصادر التمويل الذاتي الداعشي، إذ سيطر مقاتلو داعش على حقول النفط في مدن الحسكة ووادي الفرات في سوريا، و أيضاً على ست مصافٍ للنفط في البلدة الحدودية تل أبيض، كانت تستخدم لإنتاج وقود الديزل والبنزين، وكانت تهرب بداية إلى تركيا موفرة حوالي 50 مليون دولار شهريا، حسب تقرير لمؤسسة "كارنيجي" للسلام الدولي. بل استطاع التنظيم عقد صفقات لبيعها إلى النظام السوري، كما غنمت "داعش" الكثير بعد هجومها على مصفاة النفط في "بيجي" التي تعد أكبر منشأة نفطية في العراق. والحال نفسه كان مع الكهرباء، إذ حققت "داعش" أرباحا من بيع الكهرباء في العراق وسوريا للأهالي والجماعات المحلية ولمناطق تسيطر عليها حركات مسلحة أخرى، وحتى عبر صفقات مع النظام.

وضع مقاتلو"داعش" أيديهم فور دخولهم للموصل على مناجم الذهب، بينما نهب المقاتلون الموالون لها البنك المركزي بالمدينة والمؤسسات المالية، واستولوا على سبائك ذهبية تقدر بـ 430 مليون دولار.

تفوقت "داعش" أيضاً في أنشطتها الإرهابية التى امتدت للخطف والسرقة والقتل والتهديدات فضلا عن تجارة المخدرات ومخططات غسيل الأموال. وذكرت شبكة "سي إن إن" الأمريكية أنه تم اختطاف عشرات المواطنين الأتراك والهنود بحدود المناطق الواقعة بشمال غرب بغداد، وطالبوا الحكومة والسفارات بدفع فدية لإطلاق سراحهم. وفي تقرير آخر لها، رأت أن ثروة "داعش" تتجاوز حالياً المليارى دولار، وهو ما يتعدى بكثير ثروات حركة طالبان وتنظيم القاعدة،

أكد اعتقال أبرز ممولي تنظيم الدولة الإسلامية بالعراق والشام " أبو هاجر" في العراق، صحة الكثير من تلك التقارير، وكشف أيضا استمرار اعتماد التنظيم على الدعم والتمويل الخارجي. فتبين من خلال اعترافات محمد الدليمي قيامه بتوزيع أربعة ملايين دولار شهريا بين ولايات التنظيم في عموم العراق، مؤكداً على أن جمع تلك الاموال تم بواسطة فرض الأتاوات والتمويل الخارجي والتبرعات، فضلا عن منافذ أخرى تتعلق بسرقة بيوت المسؤولين وتهريب النفط. وأن توفير الأموال يتم عبر طرق عدة أبرزها التمويل الخارجي الذي تتبناه الجهات الداعمة للإرهابيين، مشيراً إلى أن الأموال زادت بشكل كبير بعد أحداث الأنبار الأمنية التي سهلت كثيرا توفير مئات الآلاف من الدولارات خلال أيام قليلة، عن طريق الحوالات المالية ومعتمدين من ناقلي البريد بعد إدخالها عبر الحدود، وكذلك بعد سيطرة التنظيمات الإرهابية على آبار النفط في منطقة الحسكة السورية، وتهريب وبيع البترول بأسعار مغرية، فضلاً عن الأتاوات التي تجبى في محافظة نينوى من شركات نقل المشتقات النفطية ومحطات تعبئة الوقود والتجار والأسواق وصولاً إلى أصحاب الصيدليات والمحال التجارية وشركات الهاتف النقال التي تدفع مبالغ ضخمة.

يبدو أن الفشل الذي منيت به أفكار أوبنهايمر في فلسطين ودفع الحركة الصهيونية للاستمرار في الاعتماد على الدعم الخارجي، قد قابله نجاح واسع في السياسات التي اتبعتها "داعش". لاسيما مع توافر ثروات وإمكانيات متنوعة في المناطق التي خضعت لسيطرتها في العراق وسوريا.

سوريا وفلسطين: درب الآلام والآمال

فيكتوريوس بيان شمس

عادت القضية الفلسطينية من جديد إلى واجهة الأحداث، والتي انخرط فيها أهالي الأراضي المحتلة في العام 1948 بفاعلية بعد ردّة الفعل الجهنّمية على اختطاف وقتل ثلاثة مستوطنين صهاينة. لم يُعرف بالضبط من هي الجهة التي اختطفتهم، ثم التصعيد الصهيوني الذي ابتدأ منذ اختطاف مجموعة من المستوطنين للطفل محمد أبو خضير وقتله على طريقتهم التي يعرفها العالم أجمع، مع العلم أن المقاومة درجت على عادة الإعلان عن عملياتها على الفور، إلا أن أصابع الاتّهام فيما جرى، توجّه للعدو الذي لم يكن راضياً عن تشكيل حكومة الوحدة الوطنية الأخيرة برئاسة رامي الحمد الله، والتي أنهت نزاعاً حكومياً طويلاً بين حركتي "فتح" و "حماس".

تفاعلت الأحداث الأخيرة في سياق زمني مختلف تماماً عمّا سبق، بحيث انشغل العالم العربي بمآسيه التي تعتبر امتداداً لحركة التغيير الأخيرة التي بدأت من تونس أواخر العام 2010، ثم امتدت لدول أخرى كان الاستبداد فيها قد وصل إلى ذروته، والتي يأخذ الصراع فيها شكل تطاحن بين نظام استبداد قديم يحاول إعادة إنتاج نفسه بصور شتّى، وبين واقع جديد يحاول أن يفرضه التاريخ.

يتوازى هذا المشهد مع مشهد آخر لا يقلُّ دموية عنه، ففي الوقت الذي تقصف فيه الطائرات الإسرائيلية الأراضي الفلسطينية مركّزة على قطاع غزة، تقوم طائرات النظام السوري بالإغارة على المدن والبلدات السورية، والتي لا يبعد جزء كبير منها عن خطوط الهدنة مع العدو سوى بضعة مئات من الأمتار، لا بل امتدت سطوة هذه الطائرات لتطال مدناً عراقية انتفضت على القمع والتمييز الطائفي الذي يمارسه نظامها عليها. ومن نافل القول، إن النظام السوري كان لاعباً أساسياً في المسألة الفلسطينية التي استخدمها بتحكّم ومهارة لم يجاريه فيها أي نظام في المنطقة. ففي حين كان يستمد شرعية وجوده من الشعارات التي رفعها، والتي تعبّر عن رغبته في استكمال المعركة مع العدو لتحرير الأراضي المحتلة، كان يمارس أقسى أنواع البطش بحق الشعب الفلسطيني، إن في سوريا، أو على أراضي الجار الشقيق لبنان.

لا تتعلّق المسألة هنا بحصار المخيّمات في دمشق ودرعا وحمص وغيرها على خلفية الثورة، وعمليات القتل والتهجير والتنكيل التي مورست بحق الشعب الفلسطيني أسوة بأشقائهم السوريين، بل تمتد أبعد في التاريخ، أي منذ مجزرة مخيم "تل الزعتر" في العام 1976، وما تلاها من منع العمل المسلّح انطلاقاً من الأراضي السورية، وتضييق كانت تتم هندسته في الفرع الأسوأ والأشهر في سوريا، أي الفرع (235)، أو "فرع فلسطين" التابع "للمخابرات العسكرية"، وهي التي تتشابه إلى حد بعيد في ممارساتها مع أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية، إن لم تكن أسوأ.

الأساس في كل ما تقدّم، أن فلسطين بقيت وحدها تحت النار، وقد فشلت كل الرهانات على مساعدتها من قبل قوى المقاومة لبنان وسوريا، حتى وهي القادرة نظرياً، يدلّل على ذلك تورّط "حزب الله" في الحرب الطائفية على الشعب السوري تحت حُجج شتّى، أكثر ما يلفت النظر فيها شعار "مكافحة الإرهاب". هذا الشعار الذي لم يُتّفق على تعريف جامع مانع له، وهو ما أجبر الرئيس السابق حافظ الأسد في العام 1985 للدعوة لمؤتمر دولي لتعريف "الإرهاب". إذاً، لم يُعلن "حزب الله" عن ماهية فهمه وتعريفه للإرهاب، فتماثل بذلك مع مواقف أخصام كُثر، كالولايات المتّحدة التي دخلت المنطقة من ذات البوابة بعد مساهمتها بصناعة الجماعات التكفيرية في مختبراتها الأمنية. هذا ما يدعو للقول، إن تماثل الأخصام بفهم مسألة "الإرهاب"، لا يمنع تماثلهما أيضاً في كيفية مكافحته. إذا كان هذا على هذا النحو، يصبح الموقف أكثر سوءاً، بمعنى: ما الذي يمنع "حزب الله" والفريق الذي ينتمي إليه من التماثل في الموقف مع ذات الأخصام المزعومين حول رؤية واحدة مما يجري في فلسطين، وإن غلفت ببعض الصراخ والشعارات التي تحاول إثبات العكس؟.

إلا أن هذا الفريق يعمل على ضرب أي فهم كهذا، والذي يُفقده شرعية وجوده عبر إعلامه الذي يُصر على أن القضية الفلسطينية هي القضية الأساس. هكذا، تتراكب جملة من الاستعصاءات التي يوظّف فيها التاريخ، لمحاولة تبييض صورة الحاضر، كالقول مثلاً، أن صواريخ (M302) التي استخدمتها المقاومة الفلسطينية، هي صواريخ سورية المنشأ. وهو قول صحيح، شرط ربطه بسياقه التاريخي. لم تأتِ هذه الصواريخ عشية العدوان الأخير، وصلت هذه الصواريخ و غيرها من الأسلحة في سياق زمني وسياسي آخر مختلف تماماً، كانت فيه حركة "حماس" بالتحديد في مرحلة شهر العسل مع النظام السوري و"حزب الله" وايران. وعليه، كيف يُقرأ خبر أو عنوان كهذا إذاً: "تجار اسرائيليون يبيعون ايران قطع غيار لطائرات حربية"، انتشر هذا الخبر في شباط 2014، وهو يتحدّث عن قطع لطائرات (فانتوم F4) المتخلّفة. التجار الإسرائيليون، يعلمون أن هذه الطائرات لن تستخدم ضد كيانهم، ليس فقط لتخلّفها أمام ما يملكون، بل لأنهم يعلمون أن من يطلب قطع لهكذا طائرات منتهية الصلاحية، لا نية له باستخدامها، إلا داخلياً، أي لحماية سطوته وسلطته، أليس هذا ما حصل مع الأسلحة التي جُوع الشعب السوري على مدى عقود بسبب تكديس النظام لها، لتستخدم ضده في النهاية بكثير من الحجج كفلسطين و "الإرهاب"؟.

في الخلاصة: يُسجّل للمقاومة الفلسطينية، إن جُرّدت بعض فصائلها من تكتيكاتها السياسية المربكة، و التي تورّطت بها تحديداً حركة "حماس" منذ شراكتها في السلطة وما ترتّب على ذلك فيما بعد، أنّها وحدها ستخوض المواجهة التي يبدو أنّه لن يكون من نتائجها انهاء الاحتلال، لكنها تتكامل مع حركة التغييرات التي إن أنجزت مهامها في أماكن أخرى كسوريا، ستحقق تكاملاً يكون مدخلاً لبداية عهد جديد يقلب السحر على الساحر، على الأقل بتحرير فلسطينيي دول الطوق من أسر أنظمة الاستبداد و الاستعباد، ليأخذوا مكانهم الطبيعي في المواجهة الأكبر ولو بعد حين.

«داعش» فيلم يضاهي إنتاجات هوليود وخيال أسامة بن لادن

■ ياسر بدوي

لم تنقطع محاولات الجماعات الغربية ،التي تغذي روح العداء للعربي و المسلم عن مهمتها التاريخية في تشويه الصورة العربية الإنسانية الحضارية ، والتي أخذت مع الإسلام طابعاً كونياً ، والصورة الأولية التي يمكن تلقيها من مجريات وتطورات الحالة السورية يمكن رسمها بجملة تشكل مدخلا لفهم عمق ومعاني ما يحدث ومختصرها ،إن الخدمة التي قدمتها صورة «داعش» وفرت على الجماعات التي تعمل على التشويه مئات السنيين ؟

بدأت حملات التشويه المنظمة عقب فشل حملات الفرنجة ،التي يسمها التأريخ الغربي (الحملات الصليبية) وعرفت هذه الحملات المنظمة بالاستشراق ، لخص إدوارد سعيد هذا الجانب الهام في كتابه الشهير «الاستشراق» ، اختار فيه تشريح إحدى المؤسسات العلمية الغربية، وهي الاستشراق، والذي عمل تحت لوائه عدد كبير من العلماء والباحثين الأميركيين والأوروبيين، وأنتجوا عدداً من الكتب والمؤلفات المتصفة في أكثرها بالجهد والابتكار. كذلك أثار سعيد الاهتمام بصدقه في تعرية الاستعمار وتبيان ظلمه في البلاد التي حكمها. فالأخطاء المبكرة التي ارتكبها بعض المستشرقين واستغلال أوروبا الامبريالية في القرن التاسع عشر لدراسات الاستشراق والمركزية الأوروبية التي ظهرت في تلك الفترة شوهت من صورة الاستشراق بشكل كبير.

مع ظهور السينما تلقفت الجماعات المشوهة هذا الفن العظيم، و أخذت حيزاً واسعاً لنشر وتكريس صورة مشوهة عن العرب و المسلمين أمام الرأي العام العالمي. حلل الكاتب اللبناني جاك شاهين هذ ه الصورة في كتابه «كيف تشوه إمبراطورية هوليود أمة» ، حلل شاهين في كتابه ألف فيلم أنتجته هوليود، حيث يظهر العربي محباً للنساء، شرهاً، مبذراً للمال، وأخطر ما مررته هذه الأفلام أن العربي و المسلم إرهابي ؟

يقول شاهين: «عندما ننظر إلى تشويه المسلمين العرب فإن ذلك يجعل كراهيتهم وقتلهم أسهل كثيراً».

بعد وقوع أحداث سبتمبر ارتكبت جرائم كثيرة ضد الأمريكيين العرب والمسلمين في الولايات المتحدة ، وهو ما يؤكد أهمية محاربة الصور النمطية. وأوضح شاهين «أن هدف الكتاب هو أن يشرح في الواقع أنه عندما تشوه شعبا فإن رجالا ونساء وأطفالا أبرياء يعانون، وأن التاريخ علمنا ولا يزال يعلمنا هذا الدرس».

عدة أفلام سينمائية أنصفت العرب في إمبراطورية هوليود مثل «الرسالة» و «عمر المختار» و «المحارب الثالث عشر» و»مملكة السماء»، لكنها لا تستطيع مواجهة الصورة النمطية التي شكلتها هوليود عن العربي و المسلم . ومع بداية التنبه العربي لهذا العامل كان الانتاج الضخم (داعش). لم تحتاج هوليود إلى راكورات ولا ممثلين كبار، فقد لعب أبو بكر البغدادي دور البطولة المطلقة، أما السيناريو فكتب بعناية فائقة ، مادته مستمدة من القرآن الكريم بانتقاء مدروس، ما يلائم مادة التشويه ((وأنزلنا الحديد في بأس شديد ومنافع للناس)) قوله تعالى ترجمه البغدادي بالسيف ؟ ونسي سيرة رسول الله الذي عرف مخاطبة القلوب، ونسي أو أهمل واستبعد أن الدعوة الإسلامية للمقتنعين بنشرها لا يمكن أن تتم إلا عبر مدخل وحيد، وهو الاقناع ، حتى شيخ الاسلام بن تيمية لم يقل بنشرها إلا عبر الإقناع ، وربط مقاتلة (الكفار) في حالات رد الاعتداء فقط.

لا شك أن صورة «داعش» واستخدام الأفكار الإسلامية الكبرى في مرحلة تاريخية معينة ليس إلا حالة تشويه و تنفير تسيء للإسلام، وهي محطة أخطر من مرحلة 11 سبتمبر.

وهنا يأتي دور الإعلام الذي استخدمته الجماعات التي تشوه و تأجج الصراع، ولكن الأدوات غير مشكوك فيها كما حدث في الحادي عشر من سبتمبر ، فقد تم توظيف الإعلام توظيفا باهرا في تشكيل هذه الصورة التي تلامس رفض الواقع الحال لدى الشباب المهمل المهمش ، والذي يتعرض لأقسى و أبشع حالات القهر و القتل و الاذلال و الفقر ، التي صورت و بثت عبر محطات إعلامية كبرى ، وهنا ليس مستغربا أن تحتل قناتين أو ثلاثة من القنوات العربية الواسعة الانتشار المشهد بالتوازي مع قنوات التلفزيون السوري رأس البلاء .

إن تتبع صورة التشويه مشتركة من جميع الأطراف السياسية ، وإن اختلفت الأهداف السياسية ، فيذهب غسان بن جدو لاختراع (نكاح الجهاد) ويعرض التلفزيون السوري مقاطع من هذه المهمة التشويهية ، وتسجل «الجزيرة» لقاءً مع أبي محمد الجولاني، و تفرد «العربية» المساحات الواسعة في سياق نقدها للإرهاب ، لبث الصور الداعشية .

قد تكون لدى الأطراف التي أوجدت ونمت الصورة (الداعشية) أهدافاً سياسية لمواجهة (الحالشية) التي يتمترس النظام وايران خلفها ، وربما تكون «داعش» تتمة و صورة مختلفة لجوهر «حالش» ، لكنها بالمعنى البعيد صورة تترسخ في الوجدان العربي و الغربي و العالمي عن شرخ بين مكونات المجتمع السوري و العربي و العالمي يصعب جسرها بسهولة ، ووفق القراءة التي من الله علينا بها ، كان الإسلام الحق المعتدل و المتنور والذي يدعو للحق و الحرية و الأخلاق ينتشر بقوة ، في الغرب و الشرق ، و لصده و فرملته لا بد من الصورة الداعشية كي ينفر منه الناس، ويشككون في صحته أيضا، و من هنا تقول ايران و قوى دفع الصدام العالمي شكراً للبغدادي و الجولاني و الغزاوي و الحموي و الموصلي على هذا الفيلم الذي أصبح شغل الناس الشاغل . فما عملت عليه هوليود و الاستشراق و الإعلام خلال مئات السنين يرون حصيلته ، ويرون نتاجاً فاق تصوراتهم أكثر مما فاق تخيل الشيخ بن لادن وهو يشاهد برجي التجارة يهويان أما كاميرا السي إن إن، و إن كانت اللقطات الأولى من كاميرا مصور إسرائيلي ، كان يجلس بالصدفة فوق مبنى في نيويورك، وأكبر بكثير من الصدف التي كانت تتواجد فيها كاميرا التلفزيون السوري عندما كانت تصور التخريب و القتل التي يقوم فيها الثوار المفترضين ؟ .

عودة النزعة الإمبراطورية وتفكك الشرق الأوسط

■ شيرين هانتر - ترجمة وإعداد «البديل»:

عندما سقط الاتحاد السوفيتي في عام 1991، كان هناك أمل أن العائق الرئيسي أمام تنفيذ المبادئ الواردة في ميثاق الأمم المتحدة وإنشاء نظام دولي يقوم بشكل أكبر على القانون والنظام قد أزيل، وأن هناك فرصة لتقدم أممي من أجل السعي إلى تنظيم العلاقات الدولية على أساس من القانون والمبدأ والقوة لا مجرد والطموح.

ربما أولئك الذين ترعرعت لديهم تلك الآمال كانوا ساذجين جداً، حين سمحوا لرغباتهم حول المستقبل أن تلقي بظلالها على تجربتهم من الماضي. على كل حال، كان الشفاء من أوهامهم قريباً مع تطور الأحداث. بدلاً من الدخول في نظام سياسي جديد في القرن 21، أدت نهاية الاتحاد السوفييتي إلى إحياء سياسة القرن التاسع عشر. أولئك الذين قد فازوا في الحرب الباردة بدأ لديهم حلم الهيمنة العالمية، وإعادة تشكيل مناطق بأكملها، وفقا لبرامج لا تتعلق بالديمقراطية.

إن روسيا، التي ورثت الاتحاد السوفياتي الذي خسر في الحرب الباردة، بدأت تحلم بإحياء إمبراطوريتها المفقودة، بدلاً من التركيز على علاج العلل الداخلية. وهذا المثال وغيره من شأنه أن يبرز أن القوى الإمبريالية، مثل الصين، كانت بانتظار التحليق في فضاء الفكرة نفسها.

بعد عواقب وخيمة من هذا الإصدار الجديد من العقل السياسي القديم المستوحى في آماله من جاذبية القرن التاسع عشر السياسية، وبدلاً من أن تكون النزعات الإمبراطورية قد هدأت، فإن الكثير من الدول، حتى تلك الأقل قوة من روسيا، بدأت تحلم باستعادة مكانتها الإمبراطورية، وتوسيع مناطق النفوذ، والتلاعب بخطوط الصدع في الدول القائمة من أجل تحقيق أهدافها؛ وبالتالي ظهرت مشاريع مثل تركيا العثمانية الجدد، والخلافة الإسلامية، وسراب الهلال الشيعي.

وكان أحدث تطور على طول هذا الخط من الرغبة فيما يسمى اتفاقية سايكس بيكو جديدة، والرجوع عن الخطوط التي رسمها الفرنسيون والبريطانيون في مايو 1916 وصيغتها المعدلة بموجب معاهدة سان ريمو عام 1920. الاتفاق الجديد بطبعة جديدة من شأنه أن يفترض تغيير الشرق الأوسط، وربما أجزاء من الخريطة السياسية في جنوب آسيا، ويفترض أن يكون هذا التغيير على أساس عرقي وطائفي، فيما يعتبر أكثر واقعية من تلك التي توجد حالياً.

في الواقع، ظهرت مثل هذه الأفكار بعد عام 2001 ، وانعكست في مواد مثل «حدود الدم»، والتي أظهرت كيف يمكن تقسيم دول مثل إيران وأفغانستان وباكستان إلى كيانات عرقية وطائفية أكثر تجانساً.

ومع ذلك، فإنه لم يكن هناك متابعة جدية من قبل الحكومات الكبرى في الغرب أو الشرق الأوسط قبل اندلاع الحرب الأهلية السورية، والأزمة الأخيرة في العراق. الآن بعض البلدان تبدو أنها تشجع بقوة تفكك العراق، وبعضها تعارض علناً، وتدعم سراً.

بعض هذه البلدان، التي يعاني معظمها من الأقليات العرقية والدينية الساخطة ، لا تدرك أن تقطيع أوصال العراق سيكون في جميع الاحتمالات أيضاً مقدمة لتشجيع الميول النابذة في الدول الأخرى المجاورة. على سبيل المثال، حكومة رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان تفكر أن تركيا يمكن لها أن تظل بمنأى عن التأثير الذي سيحدثه بروز كردستان المستقلة في العراق على تطلعات الأكراد في تركيا، وأن كردستان العراقية المستقلة سوف تسعى في الوقت المناسب لدمج المناطق الكردية الأخرى المأهولة في الدولة الجديدة، وخصوصا بسبب أحلام كردستان الكبرى لدى مسعود بارزاني، رئيس إقليم كردستان.

ولن يكون الأكراد الأقلية الوحيدة في تركيا الذين قد يريدون الانفصال. على سبيل المثال، تفكك سوريا وقيام دولة علوية منفصلة قد يشجع الأقلية العربية في تركيا، ومعظمها من العلويين، للانضمام إلى تلك الدولة. وهم يتعرضون للضغوطات التي زادت في السنوات الأخيرة، ويعيشون على مقربة من الحدود السورية في الأراضي التي تطالب بها سوريا. ودولة شيعية في جنوب العراق سوف تصبح قطب للشيعة في المملكة العربية السعودية.

ما هو أكثر إثارة للخوف هو أن هذه العملية من الانفصال وإعادة التشكل ستكون عنيفة ووحشية للغاية. لن يكون هناك طلاق مخملي، كما حدث في تشيكوسلوفاكيا في عام 1993، وهذا من شأنه أيضاً أن يزيد من ترجيح تصاعد المواجهة الحالية بين الدول.

هذه الاضطرابات في نهاية المطاف يمكن أن تصل إلى مناطق ذات أهمية دولية حاسمة بسبب مواردها النفطية. حتى الآن، كان هناك درجة من اللامبالاة بشأن الصراعات الإقليمية لأنها لم تؤثر على العرض و / أو أسعار النفط، وبالتالي مصالح اللاعبين الدوليين الرئيسيين. ولكن يمكن أن لا يكون هناك أي ضمان بأن هذا ما سيكون عليه الحال دائماً.

علاوة على ذلك، الدول الجديدة التي يمكن أن تنشأ من عملية التفكك، لن تكون قابلة للحياة، ويرجع ذلك جزئياً إلى أن هذه الدول التي من المفترض أن تكون أكثر تجانسا ستظل مجزأة، إلا إذا اتخذت شكل كيانات قزم. فإنها ستعتمد على جيرانها: بعضها للوصول إلى البحر، والبعض الآخر للحصول على الموارد، وبالتالي ستصبح عرضة لضغوط كبيرة للغاية. بالتأكيد، فإن إنشاء هذه الكيانات لا يمكن أن يساعد على حل المشاكل المستعصية مثل الصراع العربي الإسرائيلي أو مشكلة كشمير، حتى لو كانت هناك عدة ولايات في سوريا أو بلوشستان المستقلة. بالتالي فإن حل المشاكل الراهنة والمحتملة لا ينبغي أن يمر عبر موجة جديدة من الغش شبه الاستعمارية. بدلا من ذلك، ينبغي أن يشجع المجتمع الدولي كلما كان ذلك ممكنا العلاقات الاتحادية أو شبه الفيدرالية والتكامل والتعاون الإقليمي. بالتأكيد يجب عدم تشجيع الغرباء على استخدام القوة لإحداث التغيير.

في أوروبا الوسطى، باستثناء حالة الطلاق المخملية بين التشيك والسلوفاك، وانهيار إمبراطورية الاتحاد السوفييتي لم تؤدي حالات الانفصال إلى تكرار الظلم من مختلف المعاهدات التي وافقت عليها الدول بعد الحرب العالمية الأولى في 1919–1920. بدلاً من ذلك، كان الشرط لدخول دول أوروبا الوسطى إلى منظمة حلف شمال الأطلسي والاتحاد الأوروبي أن تستمر في الحدود القائمة بينها، ونبذ المطالب الإقليمية الماضية. لم يتم تشجيع هذا النهج في الشرق الأوسط وجنوب آسيا. الدول الوحدوية الحالية قد تأخذ مجراها إلى التفكك، والعراق قد يكون أول من يواجه العديد من التحديات المتبقية السليمة. ولكن خلق دول أخرى أصغر، وأقل قابلة للحياة لن يوجد الحلول.

بدلا من ذلك، يجب أن يقاوم اللاعبون الدوليون والإقليميون الرئيسيون تأجيج نيران الفتنة العرقية والطائفية، والتركيز على ترتيبات واقعية تستجيب لاحتياجات الشعوب المختلفة، من دون تفكيك نظام الدولة بأكمله، لأن هذه النيران «لا محالة» سوف ستبتلع اللاعبين الخارجيين.

غزة: توسّع في الهجوم الإسرائيلي ومواقف دولية ضبابية ووضع إنساني كارثي

غزة- القدس- رويترز- «إيرين»:

واصلت القوات الإسرائيلية يوم السبت هجوماً برياً على قطاع غزة، حيث استمر ناشطون فلسطينيون في إطلاق صواريخ على عمق قلب إسرائيل ليتجاوز عدد القتلى 300 خلال الصراع الذي بدأ قبل نحو أسبوعين.

وقال مسؤولون فلسطينيون ان 65 فلسطينياً قتلوا يوم الخميس الماضي – بينهم ما لا يقل عن 15 تقل أعمارهم عن 18 سنة – منذ بدأت إسرائيل هجومها البري على قطاع غزة الذي يسكنه 1.8 مليون نسمة.

وخلال هذه الفترة أطلق أكثر من 135 صاروخاً من غزة، وعلى الرغم من أن معظمها أسقطته درع القبة الحديدية الإسرائيلية بما في ذلك بعض الصواريخ فوق تل أبيب دون أن تؤدي لوقوع ضحايا.

وقال الجيش الإسرائيلي إنه قتل 17 مسلحا فلسطينيا بينما استسلم 13 آخرون، وتم احتجازهم للاستجواب بعد بدء هجوم المشاة والدبابات في القطاع الذي تهيمن عليه حركة المقاومة الإسلامية (حماس).

وأضاف الجيش إن جنديا إسرائيليا قتل بنيران صديقة على ما يبدو، وأصيب آخرون في العمليات البرية. وقال إنه تمت مهاجمة نحو 240 هدفاً، بينها 21 منصة إطلاق صواريخ مخبأة وعشرة أنفاق.

وقال الرئيس الامريكي باراك أوباما الجمعة إنه تحدث إلى رئيس الوزراء الاسرائيلي بنيامين نتنياهو، وأكد له تأييد الولايات المتحدة لحق اسرائيل في الدفاع عن نفسها، لكنه عبر عن القلق بشأن «مخاطر المزيد من التصعيد» والمزيد من الخسائر في أرواح الأبرياء.

وقال أوباما للصحفيين في البيت الأبيض «نأمل أن تواصل اسرائيل التعامل مع هذه العملية بطريقة تقلل من الخسائر بين المدنيين الى الحد الأدنى.»

ويعتزم الأمين العام للأمم المتحدة بان جي مون التوجه إلى منطقة الشرق الأوسط في محاولة لإنهاء العمليات القتالية.

وفي جلسة طارئة لمجلس الأمن الدولي يوم الجمعة ندد وكيل الأمين العام للأمم المتحدة للشؤون السياسية جيفري فيلتمان بإطلاق الصواريخ على إسرائيل، لكنه عبّر عن قلقه من «الرد الاسرائيلي المفرط». وجاء الهجوم البري الإسرائيلي بعد قصف غزة على مدى عشرة أيام من الجو والبحر وإطلاق حماس نحو 1500 صاروخ على إسرائيل وفشل المساعي المصرية في تأمين وقف إطلاق النار.

وقال نتنياهو للصحفيين قبل جلسة خاصة للحكومة في قاعدة عسكرية في تل أبيب «تعليماتي... للجيش الإسرائيلي وبموافقة المجلس المصغر المعني بالشؤون الأمنية.. هي الاستعداد لاحتمال توسيع العملية البرية بشكل كبير.»

وتقول إسرائيل إن قواتها ركزت حتى الآن على استهداف الأنفاق التي قد يستخدمها نشطاء فلسطينيون لتنفيذ هجمات عبر الحدود.، وأحبط تسلل من هذا النوع يوم الخميس الماضي.

وقال مسؤولون في غزة إن 299 فلسطينياً قتلوا أغلبهم من المدنيين، وبينهم 50 على الأقل دون 18 عاما قتلوا منذ بدء القتال في الثامن من يوليو/ تموز الجاري.

وتريد حماس من إسرائيل ومصر–التي تختلف حكومتها مع الحركة الإسلامية– انهاء القيود المفروضة على الحدود التي عمقت الأزمة الاقتصادية والبطالة.

وتقول إسرائيل إنها لا تسعى للإطاحة بحركة (حماس) المهيمنة على قطاع غزة.

من جهة أخرى، قال وزير الخارجية المصري سامح شكري يوم السبت إن بلاده لا تعتزم تعديل مبادرتها لوقف اطلاق النار في غزة بين إسرائيل وحركة المقاومة الفلسطينية (حماس) التي اعلنت رفضها للمبادرة.

وقال شكري في مؤتمر صحفي مع نظيره الفرنسي لوران فابيوس إن المبادرة «تلبي احتياجات كلا الطرفين. بالتالي سوف نستمر في طرحها ونأمل أن تحظى بموافقتهم في القريب العاجل.»

وجاءت التصريحات بعد إجراء فابيوس محادثات مع الرئيس المصري عبد الفتاح السيسي صباح يوم السبت بشأن الأزمة في غزة.

وعلى المستوى الإنساني، أعلنت وزارة الصحة في غزة حالة الطوارئ، لأنها تواجه خطر النقص الحاد في الأدوية الأساسية. وقال أشرف القدرة، المتحدث باسم وزارة الصحة، أن الاحتياجات ستصل حداً حرجاً في القريب العاجل. وأضاف في تصريح لشبكة الأنباء الإنسانية (إيرين): «إننا نواجه بالفعل نقصاً حاداً – يتراوح بين 35 و40 بالمائة – في الأدوية واللوازم المستهلكة، مما يؤثر على علاج عدد متزايد من المصابين جراء التصعيد الحالي». (ووفقاً لمنظمة الصحة العالمية، نفد 30 بالمائة من الأدوية الأساسية ونصف مخزون المستلزمات الطبية المستهلكة في غزة حتى قبل الأزمة). وقد وجهت الوزارة ومنظمة الصحة العالمية نداءً لتوفير 60 مليون دولار على وجه السرعة لتغطية نفقات الإمدادات الطبية التي نفدت، وللقيام بالتحويلات الطبية من قطاع غزة. وأفادت الأمم المتحدة أن ما يقرب من 1،000 منزل قد أُصيب بأضرار أو دُمر بالكامل، في حين لجأ 17،000 شخص إلى مرافق الأمم المتحدة، بعد أن هددت إسرائيل بشن هجوم بري. وعندما زارت شبكة الأنباء الإنسانية مستشفى الشفاء في مدينة غزة، كانت الغرف مكتظة، وكان الطاقم الطبي يكافح لتحمل عبء العمل. وتم نقل المصابين بسرعة إلى غرف الجراحة والعناية المركزة، وفي بعض الأحيان إلى المشرحة. كما هرع الأقارب الموجودون في مكتب الاستقبال للاستعلام عن أية أخبار عن أحبائهم. ووصف كريستيان كاردون، رئيس البعثة الفرعية للجنة الدولية للصليب الأحمر في غزة، الوضع بأنه «غير عادي»، مؤكداً أنه «بالمقارنة مع أعداد القتلى والجرحى في النزاع الأخير [في عام 2012]، وصلنا بالفعل إلى مستوى عال من الكثافة في عدد القتلى، بمن فيهم النساء والأطفال ... وهناك حاجة إلى المزيد من الأدوية والمستهلكات، كما ستطرأ حاجة إلى اللوازم الطبية في وقت ما». ودعا جميع الأطراف إلى احترام العاملين في المجال الطبي، والسماح «للمستشفيات بالعمل ليلاً ونهاراً وتمكين سيارات الإسعاف من التحرك في كل مكان في قطاع غزة ... هذا أمر معقد جداً في الوقت الحاضر بالنظر إلى الوضع الأمني وحدة الصراع».

التطرف وأهمية حوار الثقافات

د. عبد الله تركماني (*)

بداية، من الأهمية بمكان تحرير المصطلح، ذلك أنّ هناك خطأً شائعاً في الحديث عن «حوار الحضارات» وكأننا نعيش في ظل حضارات متعددة، مع أنّ الواقع يقول أننا نعيش في ظل حضارة واحدة تقوم على أسس الثورة العلمية والتكنولوجية الثالثة، خاصة ثورة الاتصال والمعلومات ومواقع التواصل الاجتماعي. وذلك لا ينفي أننا نعيش في ظل ثقافات متعددة لكل منها رؤيتها المتميزة للعالم، وعلى ذلك من الأفضل أن نتحدث عن حضارة واحدة وثقافات متعددة.

وفي هذا السياق، ربما لا توجد آفة تهدد البشرية حالياً أكثر من انتشار التعصب والتطرف، الذي عبر عن نفسه في شكل عنف دموي اجتاح العديد من مناطق وأقاليم العالم، والخطورة تتمثل في انتشار هذه المظاهر واتساع نطاقها من مجموعات محدودة هامشية منبوذة إلى قلب التجمعات البشرية، وتزداد الخطورة عندما تبدأ هذه الجماعات في تحويل فكر التعصب والتطرف إلى ممارسة، حيث نشهد الاعتداءات وأعمال القتل والتخريب وقطع الرؤوس من منطلق الاختلاف.

في حين أنّ هذا الزمن العالمي المتغيّر يفرض الحاجة إلى الاكتشاف المكثف للآخر، حيث أصبحت الدعوة لحوار الثقافات تمثل القاسم المشترك بين الكثير من المثقفين ورجال السياسة والدين والمفكرين. لقد أصبحت قضية الحوار بين الثقافات من القضايا ذات الأولوية القصوى في العالم المعاصر، فلم يعد الحوار أمراً ثانوياً أو هامشياً، وإنما أصبح ضرورة حياتية لكل الشعوب، فقد تقاربت المسافات وتشابكت الثقافات وأزيلت الحواجز بفضل ثورة المعلومات والاتصالات والثورة التكنولوجية، وماصاحب ذلك من تيار جارف للعولمة.

فعلى عكس ما تزعم الأصوليات المتطرفة، من كل حدب وصوب، فإنّ مستقبل البشرية ليس للصدام الحضاري، وإنما للتفاعل والحوار والاستفادة المتبادلة. إنّ العالم غني بثقافات القارات الخمس، ومضطر إلى صياغة قواعد لتعايشها وانسجامها. فهل نستطيع الحفاظ على رؤية لمشروع كوني يتماشى مع التعددية ويغتني بالثقافات المتنوعة ؟ أم أننا مقبلون على عالم أحادي الجانب تسود فيه ثقافة معينة بقيمها وعاداتها وتقاليدها، الأمر الذي من شأنه أن يؤثر سلباً على الثقافات الأخرى ؟ هل يمكن أن يصل الأمر إلى أن يصبح العالم كله مجتمعاً واحداً يتم صبه في قوالب حضارة معينة تذوب فيها بقية الثقافات ؟ أم أنّ عالماً من هذا القبيل يعد ضرباً من الخيال الذي يدخل في عداد المستحيلات نظراً لتناقضه الصارخ مع طبيعة الحياة القائمة على التفاعل الإيجابي بين مختلف التنوعات والاتجاهات على جميع المستويات ؟

إنّ التقوقع الثقافي لم ينفع أهله في القرون الماضية، ولن ينفعهم اليوم، فالتجدد صفة تحفظ حيوية الثقافة، والانفتاح على العالم والآخر من سماتها المميزة، فهي كالهوية ليست ثابتة، إنما متحولة وكل من يتعامل معها من دون وعي بخصوصيتها يدمر أجمل ما فيها.

أما الوضع عندنا فهو تبرير السائد وترديد الماضي، ومحدودية الميل إلى المساءلة والتغيير واستشراف المستقبل. وهنا تكمن صعوبة الدور المنوط بمثقفينا العرب النقديين حين يجعلون الثقافة موضوعاً للفهم والتحليل وليس صنماً للتقديس، على اعتبار أنّ الثقافات جميعها واسطات للتعبير الإنساني، ومعابر للوصول إلى الكوني الذي يجمع البشر.

إنّ المثقف المقصود هو من يقبل الانتماء المزدوج: انتماء نقدي إلى ثقافته، وانتماء طوعي إلى مجتمع عابر للقوميات والأوطان والأديان، مجتمع عابر للثقافات يحاول أن يصوغ لغة تداول كونية بين البشر وينحت إشكالات ومفاهيم وحلولاً تستجيب لتطلعات الإنسان لحياة حرة كريمة. إذ أنّ التفكير من داخل المحلي وحده إعادة إنتاج للثقافة دون إبداع وترديد للتراث دون نقد، في حين أنّ محاولة بلوغ الكوني دون تأمل المحلي تهرّب من مهمة المساهمة في التغيير، واكتفاء بترديد الأفكار دون التزام بنشرها في مصطلحات تفهمها الأغلبية، ودون ربطها بما تراه قضاياها ومشاكلها. والحداثة النقدية هي التي تقبل هذا الانتماء المزدوج، وهذا الجهد المضاعف المتمثل في تأمل المحلي وسيلة لبلوغ الكوني، وتأمل الكوني وسيلة لإدراك المحلي.

وعليه، فإنّ البشر لا يتصارعون على الماضي، بل على الحاضر والمستقبل، ولا يتنافسون على الجنة أو على مكارم الأخلاق، بل على الثروة والسلطة والقوة. ولكنهم، من خلال الحوار والتواصل فيما بينهم، يمكن أن يعيشوا فوق سفينة الأرض بتحابب واحترام متبادلين قائمين على مجموعة قواعد، من أهمها: احترام حقوق الآخرين وحرياتهم، والاعتراف والقبول بالاختلافات الفردية، وتعلّم كيفية الإصغاء للآخرين والاتصال بهم وفهمهم، وتقدير التنوّع والاختلاف الثقافي، والانفتاح على أفكار الآخرين وفلسفاتهم، والاعتراف بأنّ ليس هناك فرد أو ثقافة أو وطن أو ديانة تحتكر المعرفة والحقيقة.

ولم تترك هيئة الأمم المتحدة الأمر معلقاً بدون تحديد، فأعلنت سنة 1995 سنة عالمية للتسامح، وأصدرت في 16 نوفمبر/تشرين الثاني في ختام المؤتمر الدولي للتسامح إعلان مبادئ كونياً، أكد على الالتزام بمواد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والمعاهدات والاتفاقيات المتصلة به. ودعا الدول إلى «تأصيل سياسة التسامح في قوانين وثقافة المجتمع لمكافحة مظاهر التعصب الديني والقومي والعرقي وكراهية الأجانب، والإقصاء والإبعاد والتهميش والتمييز ضد الأقليات الوطنية والدينية والعمال الأجانب والمهاجرين واللاجئين، وأفعال العنف ضد حرية الأفراد في إبداء الرأي والتعبير الحر وكل ما يهدد الديموقراطية والسلام».

إنّ حوار الثقافات ليس ممكناً فحسب، بل هو ضروري داخل كل ثقافة على حدة، وبين كل الثقافات، لإرساء قواعد جديدة لمعالجة النزاعات والاختلافات عوضاً عن الأساليب القديمة المتمثلة في الحرب والتعصب والإرهاب. كما أنّ هذا الحوار فضلاً عن كونه ممارسة يختص بها الإنسان فإنه السبيل الوحيد لضمان التعايش والتعدد، وهو ما يقتضي الاحترام الكامل لتنوع الثقافات وخصوصياتها المختلفة، ورفض كل شكل من أشكال الهيمنة والعنف والأحادية.

وفي هذا السياق بات مطلوباً تبلور حركة إنسانية تعمل على مواجهة ظاهرة انتشار التعصب والتطرف، حركة تشمل عناصر تعلي الإنساني على الفئوي والطائفي، عناصر تتسم بالشجاعة والقدرة على النقد البنّاء والفعل الإيجابي لمصلحة البشرية جمعاء. إننا بحاجة إلى من تتوفر لديه المشاعر الإنسانية الراقية التي تتعامل مع البشر جميعا بصرف النظر عن لونهم وعرقهم ودينهم وطائفتهم.

* باحث استشاري في مركز الشرق للبحوث – دبي